

شكّلت علاقة الشرق بالغرب علامة فارقة في الحياة الشخصية، والفكرية، لعدد من الفلسطينيين، الذين أبحروا في اتجاه الغرب، بعد النكبة في العام ١٩٤٨، فكان الانجاز الأكاديمي، والتفوق المهني في سيرتهم الأولى نوعاً من الضمانة الفردية، التي يبحث عنها لاجئون في عالم لم يعد لهم. وإذا كانت النكبة بمثابة القوة الطاردة، التي ألقت بهم رغم إرادتهم على شواطئ بعيدة، فإن الهزيمة العربية في العام ١٩٦٧ هي الحدث الذي أعادهم، وبقدر كبير من وضوح الإرادة، وصراحة الخيار الشخصي، إلى عالم حاولوا استعادته بما امتلكوا من أدوات معرفية، ومناهج فكرية جديدة، ليصبحوا خلال عقدي السبعينات والثمانينات من أبرز المثقفين في العالم العربي.

وفي هذا السياق كانت أسئلة النكبة التي أطاحت بعالمهم، ولم يتجاوز معظمهم العقد الثاني من العمر، وأسئلة الهزيمة. التي لحقت بهم إلى المنافي البعيدة، لتبديد ما قد يبرره النجاح الخاص من أوهام عزل المصير الفردي عن المصير العام، أو حتى تحرير الهوية من عبء الذاكرة. هي الأساس الموضوعي لمشروعهم الفكري، رغم اختلاف المشارب، والاهتمامات، وأدوات التعبير. وليس من قبيل المصادفة أن عودتهم تزامنت مع، وكانت إلى حد كبير استجابة لظاهرة صعود الحركة الوطنية الفلسطينية في أواخر الستينات. وفي هذا السياق، أيضاً، نشأ نوع من التأثير المتبادل، فقد عثروا في اقترابهم منها على ما يمنح الممارسة النظرية كفاءة، وجدارة، الانخراط في الواقع العملي، وعثرت الحركة الوطنية الفلسطينية، بدورها، في تأملاتهم الفكرية، على ما يمكنها من إنشاء بلاغة سياسية جديدة، تكسر احتكار جهة ما لدور الضحية من ناحية، وتعيد الاعتبار إلى الفلسطينيين من ناحية أخرى.

ومع ذلك، لم تكن العلاقة بلا مشاكل، لأن أسئلة النكبة، وتساؤلات الهزيمة، كانت تمس بنية المجتمع العربي برمته، كما أن الضرورات السياسية، والعملية، لم تكن لتتطابق مع التأملات النظرية، والفكرية في جميع الأحوال.

ضمن هذه الشروط، والمحددات، يمكن فهم السيرة الفكرية لهشام شرابي، الذي انضم في الآونة الأخيرة إلى قائمة من الراحلين تضم إدوارد سعيد، وحنّا بطاطو، وإبراهيم أبو لغد، إلى جانب آخرين غيرهم، من مجايليه، وأبناء جيله، الذين كانت النكبة تجربتهم التكوينية الأولى، ثم جمعت بينهم تجربة العلاقة بالغرب، وأرغمتهم الهزيمة الحزيرية، وما أعقبها من صعود للحركة الوطنية الفلسطينية، على الاعتراف باستحالة تحقيق الجدوى خارج شرطهم الوجودي، والجغرافي الأول، حتى وإن شط بهم المزار.

وإذا كان الشرط الأول قد تجلّى لدى هشام شرابي في سيرة ذاتية، ونوستالجيا شفافة، في أعمال مثل "سنوات الجمر والرماد"، و"صور الماضي"، فإن أسئلة النكبة، وتساؤلات الهزيمة تجلّت في أعمال مثل "البنية البطيركية للمجتمع العربي"، و"النقد الحضاري للمجتمع العربي" حاول من خلالها الغوص في الطبقات العميقة للمجتمعات العربية، بحثاً عن أسباب محتملة لهزيمة العرب، وصعوبة انخراطهم في الأزمنة الحديثة.

ورغم أن هشام شرابي يغادر الحياة في زمن تبدو فيه أسباب النكبة أقوى من أسباب النهوض، إلا أن كل محاولة لإنشاء خطاب حول أسئلة النكبة، وتساؤلات الهزيمة، لن تتمكن من تجاوز ميراثه، وميراث جيله، في هذا الشأن. كما أن كل محاولة لتمثيل العلاقة بين المصيرين الفردي والعام وصعوبة الفصل بينهما، واستحالة تحرير الهوية من عبء الذاكرة، ستجد في سيرته، وفي سيرة جيله، النموذج الأكثر مدعاة للإعجاب، وتحريضاً للفكر.